الفصل الثانى

فى الأخلاق

obeikandl.com

obeikandl.com

١ ــ الصـــدق

الصدق من الصفات الحميدة فى الانسان ، بل انه من أفضـل الصفات الانسانية على الاطلاق ، ذلك أن من يتحلى بالصدق فى القول وفى العمل ، فهو لبنة صالحة فى بناء المجتمع الانسانى ، لأن الصدق من أهم الدعائم التى تستقيم بهـا حياة الفرد ، وتصلح بهـا العلاقات الاجتماعية ، وتقوى بها الروابط بين الناس فى المجتمع .

ولهذا حث الاسلام عليه ، ووعد الصادقين جنات النعيم ، فقد ورد مدح الصدق والصادقين فى القرآن الكريم أكثر من خمسين مرة ، منها قوله تعالى : « **ليجزى الله الصادقين بصدقهم** »[1] ..

ويقول فى سورة آل عمران : « **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين** »[2] ..

فذكر أن الصدق من صفات هؤلاء الذين سينعمون بجنات تجرى من تحتها الأنهار .

وقال تعالى :« **قال الله هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك الفوز العظيم** »[3] .

كذلك ورد فى حديث رسـول الله ﷺ ما يدعو المسـلمين الى التحلى بالصدق فى القول والعمل ، فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « من أفتى بغير علم كان اثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أحد بعلم وهو يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه » .

فيبدو من هذا الحديث أن الرسول ﷺ ، ينبئنا أن من الخيانة عدم الصدق فى المشورة ، وعدم الاخلاص فى النصيحة ، فالذى يشير على غيره بأمر وهو يعلم أن الهداية والرشـد فى غير ما أشـار به ، فقـد

---

(١) الأحزاب : ٢٤ (٢) آل عمران : ١٥ ــ ١٧
(٣) المـائدة : ١١٩

خدعه وأضله اذ لم يصدقه فى النصح ، وهو بهذا قد خان العهد الذى ينبغى أن يكون بين المسلم وأخيه المسلم ، كما روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « حق المسلم على المسلم ست ، قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه » •• فجعل الحديث أن من حق المسلم على أخيه المسلم النصح ، ولا يكون الأمر نصحا الا اذا صدر عن اخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد •

فالصدق صفة مطلوبة ، وفضيلة يجب أن يتحلى بها كل مسلم ، فان لم يفعل ذلك ، كان جزاؤه النار وبئس المصير ؛ فقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « عليكم بالصدق ؛ فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، واياكم والكذب ، فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » ••

فالحديث يحث على الصدق ، ويوضح أنه سبيل الى البر والخير والاحسان فى الحياة الدنيا ، سواء أكان للانسان الذى يلتزم بالصدق ، أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، بالاضافة الى أنه طريق يوصل صاحبه الى ثواب الله فى الآخرة •

كما حذر المسلمين من الكذب ، فبين أن عاقبته سيئة على الكاذب فهو مهلكة له ولمن يتعامل معه ، ذلك أن أثره السىء يعود عليهم جميعا ، فهو موصل الى الفجور ، والموبقات ، والتصرفات المرذولة فى الحياة الدنيا ، ثم هو بعد ذلك طريق يقود صاحبه الى النار فى الآخرة •

وكما حث الاسلام المسلمين على الالتزام بالصدق فى القول ، ووعد من التزم به جزاء فى الدنيا ونعيما فى الآخرة ، كذلك أمرهم بالصدق فى العمل ، فقد قال رسول الله ﷺ : « ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » ••

* * *

٢ — الاتقان فى العمل

ورد ذكر العمل الصالح والحث عليـــه فى آيات عديدة من القرآن الكريم ، ولو رمت تلاوة تلك الآيات التى ورد فيهـــا حث المؤمنين على العمـــل الصالح ، والاخبار بانجزاء المعـــد لمن يمتثل لأمر الله فيعمل صالحا ، لضاق بنا الوقت المخصص لهذا الحديث ، ولهذا سوف أكتفى بتلاوة بعض منها ، يقول الله تعالى : **« من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »**[١] ..

وقال تعالى : **« أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم »**[٢] ..

ويفهم من تكرار العمل الصالح والحث عليـــه فى القرآن الكريم أن له أهمية خاصة ، ودورا أساسيا فى حياة الانسان الدنيوية والأخروية ، ذلك أن الالتزام بأداء الأعمـــال على وجهها الأكمل بحيث تصير صالحة يعود على الانسان فى الحياة الدنيا بالخير ، وفى الآخرة بالثواب .

● كيف يكون أداء الفرائض الدينية وسيلة لنيل الخير فى الدنيا ؟

— يفهم من سؤالك أنك قصرت مفهوم العمل الصالح على أداء العبادات فقط من صيام وصلاة وزكاة وحج وغيرها .

● نعم .. فعندما يقال : فلان صالح ، فانهم يقصدون أنه ملتزم بأداء الفرائض ، أو هو دائم الحضور فى المساجد ولا يفتر عن تسبيح الله وتحميده ليلا أو نهارا .

— ليس الأمر كما تصورت ، فان الصالح من الأعمال لا ينحصر فقط فى أداء العبـــادات المفروضة ، أو التطوع بالسنن الواردة فى كتب الدين ، بل انه يتجاوزها الى الأعمال التى يظن كثير من النـــاس أنها دنيوية .

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) البقرة : ٢٧٧

● كيف ذلك ؟

ـ عندما وصف العمل بالصلاح فى القرآن الكريم ، لم يكن المقصود العبادات فقط ، بل كل ما يباشره الانسان من أعمال ، سواء أكانت زراعية أو صـناعية .

فالفلاح الذى يتقن عمله فى حقله ، يكون قد أدى عملا صالحا يعود نفعه عليه فى الدنيا ، وذلك بأن تصلح زراعته فتؤتى ثمارا طيبة ، يصيبه منها ربح مادى كما يخدم بذلك وطنه الاسلامى ، لأنه باجتهاده فى زراعته وانتاجه محصولا طيبا ، يكون قد أسهم فى حل المشـاكل الغذائية فى المجتمع ، وفضلا عن ذلك كله ، فالله سبحانه يمنحه ثوابا فى الآخرة على ما قدم لمجتمعه فى الدنيا .

كذلك العامل فى المصنع ، اذا التزم بأمر الله ونفذ ما وصاه به فى كتابه العزيز ، بأن يكون عمله عملا صالحا ، فيجب عليه بمقتضى هـذا الالتزام أن يتقن صناعته ، فلا يخرج من تحت يده الا ما يكون صالحا للغرض الذى من أجله صنع ، فالعامل المسلم الصالح هو الذى يعتنى بما يصنع ، بحيث لا يخرج من تحت يده الا الصناعة المتقنة ، فلو فعل هـذا ، لكان عمله صالحا ، ينال عليـه خيرا فى الدنيـا . وذلك بسبب شـهرة الاتقـان التى تؤدى الى أن يقبل النـاس على شراء منتجاته ، كما يعود بالخير أيضا على أمته الاسلامية ، لأن شهرة اتقانها فى الصناعة يجعلها تحتل مركزا مرموقا بين الأمم ، ويحمل الناس على احترامها ، وفى ذلك خير للاسلام ، ودعوة مباشرة الى غير المسلمين للتفكير فى هـذا الدين الذى ربى أتباعه تربية جعلتهم يحرصون على اتقان ما يصنعون ، خوفا من عقاب الله ، وطمعا فى ثوابه .

لعلك أدركت من هـذا الشرح أن العمل الصالح الذى ورد ذكره كثيرا فى القرآن الكريم ، ليس مقصورا فقط على أداء الفرائض الدينية ، بل يشمل كل عمل يقوم به الانسان ، ولذا جاء عطف الصلاة والزكاة

عليه فى قوله تعالى : « **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم** »[٣] ..

فهذا يشـــير الى أن العمل الصالح يشـــتمل علي كل ما يباشره الانسان فى حياته • وأن الجزاء سيكون أيضا لمن أتقن عمله ، وأحسن صناعته ، والعقاب سيلحق المهملين الذين يخدعون الناس ويغشونهم فيما يقدمون لهم من صناعة غير متقنة •

وفق الله كل مسلم الى اتقان عمله ، وتحسين بضاعته ، حتى يعم الخير فى الدنيا ، وينال الثواب فى الآخرة • انه سميع مجيب •

* * *

(٣) البقرة : ٢٧٧

٣ ــ الاخلاص فى العمــل

الاخلاص فى العمل من الوصايا التى وصى بهــا الله عباده ، فقد قال فى كتابه العزيز : « **انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين** »[١] .

وقال تعالى : « **وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** »[٢] ..

وقال : « **وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** »[٣] ..

فالاخلاص فى العبادة ، شرط أساسى لتنال القبول والرضــا من الله سبحانه وتعالى ، وهو حصن من الحصون التى يحتمى بها الانسان ضد غواية الشيطان وضلاله ، فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن ابليس قوله : « **فبعزتك لأغوينهــم أجمعــين . الا عبــادك منهــم المخلصــين** »[٤] ..

فمن لم يخلص فى العبادة لله ، فلن ينال الا المشقة فى تأديتها ، ذلك أن محور العبادة هى أن تكون خالصة لوجهه تعالى ، كى يصــل العابد الى الهــدف من تأديتها ، وهو رضــوان الله ، وتهذيب النفس وتحسينها ضد الوقوع فيما يغضب الله ، حتى لا يخسر الانسان دنياه وآخرتــه .

أما الخسران فى الدنيا ، فيتمثل فى اشاعة الفحشاء والمنكر فى المجتمع ، فينحل عقده وتضطرب أموره فينتشر الفساد فى الأرض . واذا انتشر الفساد عمت البلوى وضاع الأمن والأمان ، فتصبح الحياة كئيبة ، لا طعم لها ولا استقرار فيها ، وذلك هو الخسران المبين .

أما فى الآخرة فعقاب الله ــ وكفى ذلك اذلالا وعذابا ــ لا يعلم مداه الا الله ، وجحيما ذا غصة ونكالا أليما . فيجب عليك أيها المسلم ،

---

(١) الزمر : ٢ (٢) الأعراف : ٢٩
(٣) البينة : ٥ (٤) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣

أن تخلص العبادة لله وحده ، وأن تدعوه خالصا لوجهه سبحانه وتعالى ، حتى تنال الخير فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة .

وكما أن الاخلاص فى العبادة شرط لصحتها ، وركن أساسى لنيل ثواب الله ، كذلك الاخلاص فى الأعمال الدنيوية مطلوب شرعا ، فان الله لا يقبل من الأعمال الا ما كان خالصا ، فهذه اشارة للمسلم ، وطلب منه أن يكون فى جميع أعماله مخلصا ، وأن يؤدى ما يكلف به على خير وجه والا لحقه غضب الله سبحانه وتعالى ولعنته .

فقد ورد أن الله يحب اذا عمل الانسان عملا أن يتقنه ، فان لم يتقنه ، غضب الله عليه ، ولا يكون الاتقان ولا يتحقق الا اذا أخلص العامل فى عمله ، وحرص على أن يؤديه على الوجه الأكمل .

فالاتقان فى العمل والاخلاص فيه مطلوب ، لينال الانسان الرضا من الله ، وليس الاتقان المطلوب مقصورا فقط على العبادات ، بل هو مطلوب فى كل عمل ، سواء أكان عبادة أو عملا يتعلق بالأنشطة الدنيوية .

ففى العبادة .. يطلب من المسلم أن يؤديها على نحو يؤدى الى الهدف الذى من أجله فرضت ، فتأدية الصلاة مثلا ، ليس القيام بالركوع والسجود فحسب ، بل لا يكون أداؤها كاملا الا اذا أدت الى البعد عن الفحشاء والمنكر .

يقول الله تعالى : « **ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** »(٥) .

. ويروى عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس ، قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وحبل مشدود بين ساريتين ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : حبل نتكىء عليه .. قال : حلوه .. ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا كسل ، أو فتر ، قعد »

ويروى مسلم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « اذا قام أحدكم من الليل ، فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول .. فليضجع » ..

فحرص الرسول عليه الصلاة والسلام على أن تؤدى الصلاة فى

(٥) العنكبوت : ٤٥

وقت نشاط الانسان ويقظته ، حتى يكون واعيا لما يقول اذا وقف بين يدى الله ، فأعلن عن عدم رضائه عن تأديتها فى حال الكسل ، أو الغفوة ، لأن تأديتها عندئذ لا يحقق الغاية منها .

كذلك مطلوب من الصانع فى الصناعة اذا كان حريصا على رضاء الله ومحبته ، أن يتقن عمله فيما يصنع ، أى يخلص فيه بالعناية فى اختيار النوع الأفضل ، واجادة صناعته ، ولا يخرج من تحت يده كماً لا ينفع ، وصورا لا تؤدى الغرض المطلوب منها ، اذ التركيز على انقان العمل وسيلة لترويج ما يصنع وأسلوب يضمن دوام العمل لمن يعمل ، واستمرار الثقة فيما يخرج من تحت يده من آلات مصنوعة ، وأدوات معدة للاستعمال .

وفى التجارة .. يطلب من التاجر ، أن يتقن عمله ويخلص فيه ، وذلك بالامتناع عن الغش والخداع ، وأن يلتزم فى دعايته عن السلع المعروضة حدود المعقول ، فلا يتعداه الى المبالغة التى تؤدى الى اعطاء صورة كاذبة للمشترى عن السلعة .

كذلك فى المجالات الأخرى ، سواء أكانت ثقافية ، أم مجالات خدمات ، يطلب من القائمين بها أن يتقن كل منهم عمله ، بحيث تؤدى الخدمات الى مستحقيها أو توصل المادة الثقافية على وجه يحقق الفائدة منها .

فالاتقان فى العمل والاخلاص فيه يقوم على نفى الخداع ، حتى يكون طريقا ايجابيا لاصلاح المجتمع ، وسبيلا سويا يرضى الله عنه فيثيب صاحبه عليه .

وما تفريق القرآن الكريم بين عمل مثمر ، وآخر غير مثمر فى قوله تعالى : « **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم** »(٦) ،

الا ارشادا للمسلمين ، بأن يعنوا بنوع العمل قبل كمه ، وبجودته قبل كثرته ، وبايجابيته وثمرته فى الحياة قبل ضخامته .

* * *

(٦) الملك : ٢٢

٤ ــ قضاء حاجات الناس

عنى الاسلام بتوثيق العلاقة بين المسلمين بعضهم مع بعض ، فحث على التعاون ومساعدة المحتاج ، ولم يقصر المساعدة على الجانب المادى فقط ، بل حث عليها سواء أكانت مادية ، أو معنوية ، فيروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن أخو المؤمن يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » ..

فهذا الحديث ، يبين لنا أن تعاون المؤمن مع أخيه المؤمن فى المجتمع الاسلامى يشمل الناحيتين : المعنوية والمادية .

ففى المجال الأول يحث على توجيه المؤمن لأخيه المؤمن ، أى تعاونه فى اصلاح عيوبه ، ذلك أن المؤمن يحتاج الى معرفة عيوبه ، فيصححها حتى تسير حياته فى طريق مستقيم ، ولما كان لا يستطيع ادراك عيوبه بنفسه ، فهو يحتاج الى من يبينها له ، فعليه أن يسأل غيره عنها ، كما ورد عن عمر رضى الله عنه ، أنه قال لحذيفة رضى الله عنه : « هل ترى فى شيئا من علامات النفاق ؟ فقال : لا والله يا أمير المؤمنين » .

اذن فالمؤمن بالنسبة لمؤمن آخر يشبه مرآته ، يرى فيه حال نفسه على الحقيقة ، لأنه أمين عليه ومبتغ خيره ، وعليه وزر التقصير فى حقه ، أى أن من لا ينصح أخاه المسلم فى اصلاح عيوبه . فهو مقصر فى حقه ، مخالف لما أمر به رسول الله ﷺ .

أما فى المجال الثانى : وهو مجال المعاونة المادية بين المؤمنين ، فقد حدد الرسول ﷺ ذلك حين وصى المؤمن بكف الأذى عن أخيه المؤمن ، حيث أمره بالمحافظة على ما به قوام الانسان ومعيشته ، حتى لا يتطرق اليه التلف أو ينتابه الضعف ، سواء أكان ذلك فى حضرة صاحب الشىء أم فى غيبته .

فقضاؤك لحاجة أخيك المسلم عون له ، ودفع الأذى عنه مساعدة له ، والحرص على تمكينه من الوصول الى ما يستحق فى المجتمع امتثال لما أمر به الرسول ﷺ فى قوله : « المسلم أخو المسلم :

لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه ، كان الله فى حاجته يوم القيامة ، ومن فرج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة » .

فالظلم الذى ينهى عنه الرسول ﷺ فى الحديث ، يتضمن كل اعتداء على حق أخيك فى المعاملات والعلاقات التى تقتضيها الحيـاة الاجتماعية .

فمن اغتصب مال أخيه ، بأية صورة كانت : فهو ظالم له ، ومن تسبب فى عدم وصول الحق الى أخيه ، فهو ظالم له ، ومن عطل مصالح أخيه ، فهو ظالم له ، ويدخل فى تعطيل المصالح كل من تهاون من الموظفين العموميين فى انجاز أعمال المسلمين ، فالموظف الذى يهمل مصالح الناس ويؤخرها ، أو يتعمد عدم انهاء ما بين يديه من أوراق تخص المسلمين ، فهو ظالم لهم ، بل ان من يهمل فى مصلحـة الدولة فهو ظالم لجماعة المسلمين قاطبة ، لأن عمله هـذا يؤدى الى تأخير الأمة عن التقدم ، واذا أصاب الأمة مرض العجز عن ملاحقة تطور العصر بسبب اهمال القائمين على شئونها ، فقد أجرموا فى حق الله وحق الاسلام ، لأن هذا التأخير والاهمال ، قد يؤدى الى خضوع المسلمين الى من لا دين لهم ، وبذلك تكون كارثة على الاسلام والمسلمين .

فيا أيها المسـلمون فى كل موقع ، سواء فى المكتب ، أو المصنع ، أو المتجر ، لا تتهاونوا فى أعمالكم ، كى يسـود الاسلام ، ولا تهملوا فى مصالح الناس حتى لا تكونوا من الظالمين فتقعوا فى عذاب النار وبئس المصير ، وكونوا عونا لاخوانكم المسلمين ، يكن الله فى عونكم ، وفرجوا كرب أصحاب المصالح التى تحت أيديكم ، يفرج الله عنكـم كـرب الدنيـا والآخرة .

أما فى الدنيا فيحرركم من الخضوع للاستعمار ، والركوع أمام من سبقكم فى مجالات التقدم الحضارى ، لأنكم بتأديتكم أعمالكم على الوجه الأكمل ستسهمون فى تقدم أمتكم ، ويومها لن تمدوا أيديكم الى

غيركم ، فان من يمد يده يتعرض للمذلة والهوان .. فجدوا واجتهدوا فى أعمالكم ، حتى تتحرروا من مذلة الحاجة والسؤال .

أما فى الآخرة فثواب من الله على ما قدمتم لأمتكم الاسلامية ، من أعمال رفعت مكانتها بين الأمم ، فكان فى ذلك عزة للاسلام والمسلمين .

وأختتم حديثى معكم بقول رسول الله ﷺ :

« حق المسلم على المسلم ست . قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فأجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فأتبعه » ..

لأن هذه الوصايا من أهم الدعائم التى يقوم عليها مجتمع متماسك ، يحس فيه الأخ بأخيه ، ويحرص على أن يؤدى ما عليه ازاءه ، ولا يفرط أبدا فى قضاء حاجة أخيه ، أو تلبية دعوته ، ان أصابه مكروه ، أو ألم به ضرر .

فكونوا أيها المسلمون كما أمركم رسول الله ﷺ : اخوة متحابين متعاونين ، متساندين ، يكن الله معكم فى الدنيا ، ويجزيكم أحسن الجزاء فى الآخرة .

وفقنا الله جميعا الى ما فيه الخير للاسلام والمسلمين .

* * *

٥ ـ المســـاواة

من المبادىء التى يحق لنا أن نعتز بهـا ، نحن المســلمين ، مبدأ المســاواة بين الناس جميعا ؛ فقد سوى الاسلام بين بنى آدم قاطبة ، فقرر أن لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود ، الا بالتقوى. يقول الله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم »**[1] ..

فمدار التفضيل ، ليس الحسب والنسب ، ولا كثرة المـال ، ولا لون البشرة ، بل التقوى ، أى أن أساس التفضيل ، ما يبذله الانســان من عطاء سواء أكان ذلك فى مجال العبادة ، أو فى مجال السلوك والتعامل مع الناس . وعليــه فلا يجوز لمســلم أن يعتد بنسب أو لون ، فقد روى البخــارى أن أبا ذر وبلال الحبشى رضى الله عنهمــا ــ وكلاهما من السابقين الأولين ــ تغاضبا وتسابا ، وفى ثورة الغضب قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء !

فشكا بلال الى النبى ﷺ ، فقال النبى لأبى ذر : « أعيرته بأمه ، انك امرؤ فيك جاهلية » ..

وعن أبى ذر ، أن النبى ﷺ ، قال : « انظر .. فانك لست بخــير من أحمر وأسود ، الا أن تفضله بالتقوى » ..

وقال ﷺ : « كلكم بنو آدم .. وآدم خلق من تراب » ..

فهذه الأحاديث ، حرمت على المســلم أن يسير مع هوى الجاهلية ، فيفخر بحسب أو نسب ، أو يعتز بالآباء والأجداد ، ويحتقر من عداه ، أو ينظر اليه نظرة ازدراء لأنه ينتمى الى جنس آخر . وأبلغ دليل على تحريم احتقار الانسان لأخيه الانسان ، مهما كانت الفوارق الاجتماعية ، والانتماءات العرقية قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا**

---

(١) الحجرات : ١٣ .

منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون »(٢) ..

نعم .. ان من يحتقر أخاه ، أو يلمز فى نسبه ، أو يحط من شأنه ، أو ينقص من قدره ، هو ظالم .. ظالم لنفسه : بأن ارتكب معصية ، وتجاوز ما أحل الله له .

وظالم لأخيه : لأنه أصابه اصابة قاتلة فى كيانه ، فجعله يشعر بأنه أقل ممن سواه ، بسبب لا دخل له فيه ، لأنه لم يختر أن يولد لأب فقير ، ولم يؤثر أن يكون أسودا ، وقد يكون متفوقا فى الامكانية الذاتية على غيره ممن يفتخرون عليه ، فيكونون بعملهم هذا ، قد هضموه حقه الذى بذل جهدا فيه ، وحاسبوه على شىء لم يكن له اختيار بشأنه .

وظالم للمجتمع : لأنه بافتخاره على غيره ، يكون قد بذر بذور الشقاق بين طوائف المجتمع ، وغرس فيه مقاييس لا صلة لها بالأعمال التى تقوم عليها نهضة الأمة ، فتختل القيم ، وتهدر المبادىء البناءة ، وتضيع جهود الأخيار هباء .. فلا يبقى فى المجتمع الا نعرات جاهلية ، وتفاخر أجوف ، وتعاظم بالأحساب والأنساب ، لا يقدم الأمة خطوة واحدة ، بل يكون سببا فى انهيارها .

ولهذا شن الاسلام غارات على تقاليد الجاهلية التى كانت تقوم على العصبية والكبرياء والفخر ، وتمجيد القبيلة ، فحرم على المسلمين أن يحيوا أى نزعة من نزعاتها أو أن يدعوا اليها ، فأعلن النبى ﷺ براءته ممن يفعل ذلك ، فقال : « ليس منا من دعا الى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » ..

فلا امتياز فى الاسلام للون معين،ولا لجنس من الناس،ولا لاقليم من الأقاليم فى الأرض ، فالكل سواسية ، لا فضل لأحد على أحد الا بما يبذل من جهد وما يقدم من عطاء . فالتمييز فى الاسلام قائم على أساس العمل ، وليس على أساس النسب ، مرتكز على التقوى ، وليس

---

(٢) الحجرات : ١١ .

معتمدا على كثرة المـال ، نابع من القيمة ، وليس صادرا من الهوى ومظاهر الحياة المـادية •

هـذا هو مبدأ المسـاواة فى الاسلام ، الذى سبق به كل دعوة الى نبذ التفاخر العرقى ، قرره الاسلام منذ أربعة عشر قرنا ، فسبق به كل الحضارات الانسانية على الاطلاق ، بل ان ما يتغنون به اليوم من حضارة وتقدم ، لم تستطع أن تغرس هـذا المبـدأ فى نفوس أهلهـا كما غرسه منذ أربعة عشر قرنا ، فهم لا يزالون يفرقون بين الأبيض والأسود فى المعاملة وفى القانون فى أرقى الدول حضارة •

أليس هـذا دليلا على أن الاسلام دين الحضارة ، ودين الانسانية كلها ، لا فرق بين عربى وعجمى ؛ ولا بين أبيض وأسود ، فالكل سواء أمام الله ، لا تفضيل بينهم الا بالتقوى •

وفقنا الله واياكم الى ما فيه خير الانسانية •

* * *

٦ — الاسلام والعلاقات الاجتماعية

(أ) حظى موضوع المجتمع والتطورات الاجتماعية بعناية كبيرة من العلماء ، فكتبوا فيه أسفارا ، استوعبت جميع نواحى الحياة الاجتماعية ؛ غير أن الأقوال تضاربت ، والآراء تنوعت وتفرعت حول العلاقات الاجتماعية ، سواء ما كان منها سائدا فى المجتمعات البدائية ، أو مصطلحا عليه فى المجتمعات الحديثة ، وقد لعبت الأنظمة السياسية والنظريات الاجتماعية ، دورا كبيرا فى توجيه هذه الآراء ؛ كما أثرت ظروف العصر وطبيعة البيئات على سير هذه الدراسات ، وعلى الرغم من كثرة ما قيل وكتب فى هذا الموضوع ، الا أنه لم يبلغ درجة تطمئن اليها جميع طوائف المجتمع ، وتلك نتيجة حتمية ، لأن أصحاب الآراء وواضعو النظريات الاجتماعية ، هم من البشر ، فهم مهما بلغوا من الذكاء والقدرة على الاسهام فى حل المشكلات ، فلن يبلغوا درجة الكمال ، ولذا فأعمالهم وانتاجهم الفكرى ، يعتريه النقصان ، وقابل للأخذ والرد ، ودرجة احتمال الخطأ فيه كبيرة .

● ما الحل اذن ؟ :

— هو أن نتوجه الى كتاب الله ، وهو القرآن الكريم ، فنستخرج منه القواعد العامة للعلاقات الاجتماعية .

● هل يمكن أن تذكر لى شيئا منها ؟

— نعم .. فاعلم أن علاقة الانسان بمن يعيش معه فى مجتمع واحد ، تتنوع وتتفرع حسب وضع من يتعامل معه بالنسبة له ، فهو اما قريب دما ونسبا ، أو جار ، أو بينهما رباط دينى ، أو وطنى ، أو انسانى . فاذا كان قريبا من الدم والنسب ، فقد وصى القرآن الكريم بأن يعامل الانسان قريبه معاملة حسنة ، اذ فرض عليه الاحسان الى والديه ، مهما كلفه ذلك . يقول الله تعالى : « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما**

أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »[١] ••

بل يأمرك الله ، بأن تقدم لهما المعروف ولو كانا مشركين ، بل لو حاولا حملك على الشرك فيقول الله تعالى : **« ووصينا الانسان بوالديه حسنا ، وان جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما »**[٢] ••

فالآية تأمرك بأن تطيع والديك فى كل ما يأمرانك به ، الا الشرك ، فلا تطعهما فيه •

● هذا ما فرضه الله على الأبناء تجاه الآباء ، فهل فرض الله سبحانه وتعالى شيئا على الآباء تجاه الأبناء ؟ •

— لم يرد نص صريح فى القرآن الكريم يلزم الأب برعاية الابن ، اللهم الا ما ورد فقط بشأن تحريم وأد البنات •

● وما الحكمة فى ذلك ؟

— الحكمة : هى أن الله سبحانه وتعالى ، أودع فى غرائز الجنس البشرى ، بل فى كل الكائنات الحية ، حب الأولاد ، ورعايتهم ، وحمايتهم من كل ما من شأنه أن يلحق الأذى بهم ، ولذا لم يكن هناك داع للوصية بهم ، لأن الله جعل دوافع الرحمة والشفقة كامنة فى ذوات الآباء وطبائعهم ، لأنه لو علقها على الالتزام بالوصايا والفرائض التى نزل بها الوحى ، لهلك كثير من الأطفال ، بقسوة الوالدين الذين يعصون أوامر الله ، وما أكثرهم فى كل عصر وبيئة •

كذلك أمر الله بحسن معاشرة الزوجة ، فقال : **« وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »**[٣] ••

كما حث الزوجة على أن تحفظ زوجها فى ماله ، وعرضه ، وولده ، وأن تحسن معاشرة زوجها ، قال تعالى : **« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »**[٤] ••

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) العنكبوت : ٨ .
(٣) النساء : ١٩ .
(٤) البقرة : ٢٢٨ .

كما أوصى الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بصلة الرحم ، فقال :
« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » (٥) ..

فلو التزم المسلمون بما أمر الله سبحانه وتعالى فى معاملتهم لأهلهم وذويهم ، فاحترم الابن والديه ، وعطف الوالدين على أولادهما ، وسادت علاقة المودة والمحبة بين ذوى الأرحام ، لصلحت اللبنة الأولى فى المجتمع ، ولأرسيت قواعد العلاقات الاجتماعية الصحيحة على أساس متين بين الأهل والأقارب ، وهى الأساس والمنطلق لقيام علاقات اجتماعية متينة بين الفرد وغيره ، ممن لا تربطهم به صلة الدم والنسب ، وسوف نتحدث عن هـذه العلاقة فى الأسبوع القادم ان شاء الله .

* * *

(ب) تحدثنا فى الأسبوع المـاضى عن علاقة الانسـان بذوى القربى ، واليوم نتحدث عن علاقته بمن يليهم ، ألا وهم جيرانه ..

● أتقصد بالجيران من يجاورونه فى السـكن ؟

— ليس المقصود بالجيران من يجاورونك فى السكن فقط ، بل كل من جاورته فى أى عمل ، أو التصق بك فى أى مكان ، فمن يليك فى العمل جارك ، سواء أكان جارك فى المتجر ، أو المصنع ، أو الحقل ، أو كان يجلس بجوارك فى دواوين المصالح الحكومية والمؤسسات العامة أو الخاصة ، كذلك كل من يلاصقك فى الشـارع ، أو فى المواصلات العامة جار لك ، فمن يجلس الى جوارك فى الأتوبيس ، أو القطـار ، أو الطائرة جار ينبغى عليك أن تعامله معاملة حسنة امتثالا لأمر الله سبحانه وتعـالى فى قوله : **« واعبدوا الله ولا تشركوا به شـيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمسـاكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب »**(٦) ..

فالصاحب بالجنب جار ، له حقوق الجوار .

● ما كنت أتصور أن كلمة الجوار تشمل كل هذا ، ذلك أننا كنا نفهم من كلمة الجار من يجاورونك فى السكن فقط ؟ .

---

(٥) الأنفال : ٧٥ .
(٦) النساء : ٣٦ .

— اعلم أن معانى الكلمات اللغوية تحددها الظروف الاجتماعية ،فحيث يوجد المجتمع القبلى ، ينحسر معنى كلمة الجوار الى المفهوم الذى ذكرته ، لأن مجال عمل الانسان فى هذه المجتمعات ضيق محدود ، يكاد لا يخرج عن الجوار فى مضارب القبيلة ، أما الحياة فى المجتمع الحديث فتحتم عليك التنقل فى اليوم الواحد فى مجالات متعددة ، وفى كل منها تحتك بمن يليك .

● ما هى نوعية حسن الجوار مع كل من عددتم من أصناف الناس ؟

— هناك قاعدة عامة يجب أن تتخذها مقياسا لحسن الجوار ، ألا وهى ألا تؤذى من يليك ، فان كنت سائق سيارة ، فلا تسىء الاستعمال حتى لا تؤذى المشاة ، أو تضايق سائقى السيارات الأخرى ، وان كنت صاحب محل ، أو مصنع ، أو حقل ، فلا تقترف من الأعمال ما يلحق الضرر بجارك ، وان كنت موظفا فلا تسمع زميلك ألفاظا تؤذى شعوره وتجنب كل عمل يسىء اليه ، أما فى الشارع ، سواء أكنت ماشيا على الأقدام أو راكبا مواصلة عامة ، قطارا كان ، أو أوتوبيسا ، فلا تؤذى جارك ، كأن تزاحمه فى الركوب أو النزول ، أو تترك الضعيف واقفا وأنت جالس ، أو تستعمل الشارع استعمالا سيئا ينتج عنه ضرر بالغير ، فان حافظت على جارك فى كل هذه الأماكن ، ومع كل هذه الظروف ، والملابسات ، فقد نفذت الوصية ، التى وصى بها جبريل محمدا ﷺ ، فقد جاء فى الحديث الشريف : « مازال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » .. وامتثلت ما أمر الله سبحانه وتعالى به فى قوله : « **والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب** »(٧) .

فاذا التزم المجتمع بهذه التعاليم ، سادت العلاقات الطيبة بين الأفراد ، فشعروا بأنهم أسرة واحدة ، ومن شأن هذا الشعور أن يدخل الطمأنينة فى القلوب والسكينة فى النفوس ، فتستقر الحياة ، واذا استقرت الحياة ، انصرف الناس الى العمل ، والانتاج ، فتقوى الدولة ، ويرتفع قدرها بين الأمم ، وفى ذلك عزة للاسلام والمسلمين .

---

(٧) النساء : ٣٦ .

● بقيت نقطة واحدة لم تذكرها : ذلك أنك قسمت العلاقات الاجتماعية الى علاقة دم ونسب ، وعلاقة جوار ، وعلاقة بين أصحاب العقيدة الواحدة ، أو أبناء الوطن الواحد ، أو بنى الانسان عامة ، وقد تحدثت عن العلاقتين الأولبين ، وهما علاقة الدم والنسب ، وعلاقة الجوار ، وأريد منك أن تحدثنى عن البقية ، وهى علاقة الدين الواحد والوطن الواحد ، والعلاقة الانسانية العامة •

— ذلك هو موضوع حديثنا المقبل ان شاء الله تعالى ••

* * *

(جـ) الى أين وصلنا فى الأسبوع الماضى ، فى شرح علاقة الانسان بأخيه الانسان ؟

● توقفنا عند وعدك بالحديث عن علاقة أتباع الدين الواحد ، وأبناء الوطن الواحد •

— اذن فاعلم أن الانسان مركب من مادة وروح ، والمادة تفنى بانتهاء هذه الحياة الدنيا ، أما الروح فهى باقية ، ولذا كان ما يتعلق بها أو ما يربط الأرواح بعضها ببعض أمتن وأوثق مما يربط الجانب المادى ، وبناء عليه ، فعلاقة العقيدة مقدمة على غيرها من أنواع العلاقات الانسانية ، لأن العقيدة تتعلق بالروح ، فلو أمعنت النظر فى آيات القرآن الكريم لأدركت أن رباط المؤمنين بعضهم ببعض كان مقدما على كل ما عداه ، يقول الله تعالى : « **والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** »(٨) ••

ويقول : « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** »(٩) ••

والبعضية تقتضى أن يكون البعض جزءا لا ينفك من الكل ، وبالتالى لا ينفصل عنه فى الشعور والاحساس ، ولا فى الآلام والأفراح ، فحياتهم واحدة ، فما يضر جانبا ، يؤلم الجانب الآخر ، وما يسعده يدخل السرور على الجانب الآخر ، وقد عبر الحديث الشريف عن هذا المعنى أصدق تعبير ، حيث يقول رسول الله ﷺ : « مثل المؤمنين فى توادهم

---

(٨) الأنفال : ٧٢ . (٩) التوبة : ٧١ .

وتعاطفهم وتراحمهم : كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » ..

فلو سادت هذه الروح بين المسلمين ، لأصبحت جبهتهم قوية ، لا ينفذ اليها طاغ ولا معتد ، ولا يتجرأ عليها مستعمر ، أو غاصب .

● ماذا نفعل لكى تسود هذه الروح فى المجتمعات الاسلامية ؟ .

— ينبغى أن نوقظ الشعور الدينى فى الناس ، ونغرس فى نفوسهم الفضائل الدينية ، لأن طبيعة التدين ، لها سلطان على النفوس فتخضعها لطاعة الله سبحانه وتعالى ، فاذا ما انقاد الفرد الى تنفيذ ما أمر الله ، وجد نفسه تلقائيا : يشعر بشعور أخيه ، فتتماسك الأمة ، ويصلب عودها ، وتتحد أمام من يريدها بسوء .

● وما هى أهم الوسائل لتحقيق هذا ؟

— أرى أن نبدأ أو لا بتعويد الناس على تأدية الصلاة ، لأنها من أهم العبادات التى تجمع الأمة على طريق واحد ، ذلك أن اتجاه المسلمين نحو مكة من أهم العوامل فى تقوية وحدة الاتجاه الداخلى بين المسلمين ، فهو أسلوب يضفى على جميع نظم الحياة فى المجتمع الاسلامى طابع الوحدة ، وصفة التماسك .

● وما هو الوضع لو كان فى المجتمع أقلية لها عقيدة أخرى غير الاسلام ؟

— أمرنا الاسلام أن نحسن معاملتنا لهم ، فلهم مالنا ، وعليهم ما علينا ، فلو تصفحت تاريخ الدولة الاسلامية ، لوجدت أن المسلمين عاملوا اليهود والنصارى الذين كانوا يعيشون معهم أحسن معاملة ، فتمتعوا بحرية لم يتمتعوا بها فى كثير من بلاد العالم ، بل ان الاسلام أمر المسلمين ، بأن يكونوا انسانيين فى معاملتهم مع بنى البشر قاطبة ، ماداموا لم يقاتلوهم ، فقال تعالى : **« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين »**(١٠) ..

---

(١٠) الممتحنة : ٨ .

فالمسلم مطالب بأن يعامل الناس معاملة حسنة ، مادام لم تبد العداوة منهم سافرة للاسلام والمسلمين • ويبدو من هذا واضحا أن الاسلام وصى بحسن المعاملة مع الأهل ، والأقارب ، ومع الجيران ، كما وصى بأن تكون علاقات الناس بعضهم ببعض قائمة على الحب ، والرحمة والرأفة ، وان اختلفت عقائدهم ، وتباينت أوطانهم •

● لقد اختفت هذه الروح من المجتمعات الحديثة ، وهى تتوارى شيئا فشيئا فى المجتمعات الاسلامية أيضا ، فما سبب ذلك ؟

— هذا ما سوف نتحدث عنه فى الأسبوع المقبل ان شاء الله •• أستودعك الله •

* * *

(د) تساءلت فى الأسبوع الماضى عن السبب فى بعد المجتمعات الاسلامية المعاصرة عن اتباع ما أمر به الله سبحانه وتعالى فى مجال تنظيم العلاقة بين المسلمين بعضهم ببعض ، بينهم وبين اخوانهم فى الوطن ، أو فى الانسانية ، كما شرحت لك فى أحاديث سابقة •

● نعم •• فهذه مسألة تثير جدلا كبيرا بين المسلمين ، اذ يتساءلون عما اذا كان من الممكن أن يحافظ المسلم على تعاليم الاسلام وسط هذه التيارات المادية ، التى طغت على كل أثر للروحية فى المجتمع الحديث ، فقد صارت العلاقة بين الأخ وأخيه قائمة على أساس مادى ، فتحكمت المادية فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، فاذا حاول أحد أن يسلك مسلكا آخر ، يغلب فيه الطابع الروحى على الظواهر المادية ، تعثرت خطاه ، وسدت الطرق أمامه الى أن يصل الى حالة تتصارع فيها جوانب الشر والخير عنده ، فلا يدرى الى أى جهة يتجه ، وأى طريق يسلك ، فكيف الخلاص من هذا الوباء العصرى الذى أصيبت به المجتمعات الاسلامية فى العصر الحديث ؟

— هذا مرض أصيبت به المجتمعات الاسلامية ، أو ان شئت فسمه « وباء » اجتاح العالم الاسلامى ، نتيجة للتغيرات الاقتصادية على

الصعيد الدولى والمحلى ، والعلاج ليس مستحيلا ، بل هو ممكن ، لو تكاتفت الجهود كلها على الصعيد الدولى ، والمحلى ، أى بين الدول الاسلامية ، وبين الأفراد ، اذ يجب أن تسود علاقة الإنتماء الى عقيدة واحدة بين الدول الاسلامية ، فلا تؤسس الأعمال التجارية بينها على أساس المنفعة المادية البحتة فحسب ، بل يكون فيها روح التعاون والمساعدة ، مساعدة القوى للضعيف ، والغنى للفقير ، حتى تكون شعوب الاسلام متماسكة ، يشعر كل بما عند الآخر ، ويبذل كل قطر ما عنده من طاقات لمساعدة الآخرين فى معركة التنمية والبناء ، وترسم الأمم الاسلامية منهجا تربويا يغرس فى النشء تعاليم الاسلام ، ويؤهلهم تأهيلا دينيا سليما لتتأصل الروح الاسلامية فى نفوس المسلمين ، فيسود الاخاء بينهم ، وتنتشر الرحمة فى صفوفهم ، ويتعمق الشعور بالاخوة فى قلوبهم ، فيحب بعضهم بعضا وان اختلفت أجناسهم وتباعدت أقطارهم ، فاذا سادت هذه الروح ، تهيأت ظروف الاستقامة للفرد ، فاستوى سلوكه ، وحسنت علاقته مع اخوانه ، سواء أكانوا أقرباء الدم ، أم جيرانا فى الوطن ، أو كانوا ينتمون الى أقطار متعددة ، لأن العقيدة جمعتهم ، والجو العام الذى تتعامل فيه وبه دولهم الاسلامية ساعد على غرس روح الاخوة بينهم ، وعندئذ يصدق عليهم قول الله تعالى : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا »**(١١) . .

● ولكن ألست معى فى أن تطلعات كل قطر اسلامى فى أن يحتل مركزا يفوق القطر الآخر فى المحافل الدولية ، وكذلك الصراع بين الطبقات المختلفة ، داخل كل قطر ، فى سبيل الحصول على وضع مادى وأدبى ، وتزاحم الأفراد بعضهم مع بعض لتحقيق مآربهم الشخصية ، ألست معى فى أن هذا كله عقبات فى طريق جمع المسلمين تحت راية واحدة ، بحيث يحب بعضهم بعضا ، فيساعد قويهم ضعيفهم ، ويعطف كبيرهم على صغيرهم ؟

---

(١١) آل عمران : ١٠٣ .

ـ هذا ما سنتحدث عنه فى الأسبوع المقبل ان شاء الله .. فالى ذلك الحين أستودعك الله .

* * *

(هـ) لقد أثرت فى الأسبوع الماضى مشكلة تطلعات الدول والأفراد الى الحصـــول على المزيد من الكسب المـــادى أو الأدبى على حســـاب الآخرين ، أشرت الى أن ذلك يمثل عقبة كأداء على طريق الوحدة الاسلامية بين الدول ، وحاجزا ســـميكا بين المسلمين ، مما زاد فى اختفاء الروح الأخوية فى معاملاتهم ، وســـاعد على شـــيوع الانانية وحب الذات فى المجتمعات الاســـلامية .

كيف يعالج هـــذا المرض ، وهو متأصل فى النفوس البشرية ، فهى تحب المال حبا جما كما قال الله تعالى : « **وتحبون المال حبا جما** »(١٢) ..

وتميل الى الفخر والتكبر ، كما قال تعالى : « **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال** »(١٣) ..

وقال : « **واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا** »(١٤) ..

وقال : « **واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** »(١٥) ..

بل ان الانسان ليزداد طغيانا ، اذا ملك مالا ، أو كان له جاه ، يقول الله تعالى : « **كلا ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى** »(١٦) ..

هـــذه هى المعالم الرئيســـية لأمراض النفس الانسانية ، فكيف نعالجها ، حتى يسلم المجتمع من الانانية والطغيان المـــادى ؟

ـ لقد أصبت فى تشـــخيص المرض ، الذى أصيبت به المجتمعات المعاصرة ، وانتقلت العدوى الى المجتمعات الاسلامية ، فشاع فيها احتكار بعض الطبقات لمصادر الثروة ، وتفشى حب المـــال ، والسعى وراء المتع

---

(١٢) الفجر : ٢٠ .
(١٣) الحديد : ٢٠ .
(١٤) لقمان : ٧ .
(١٥) المنافقون ٥ .
(١٦) العلق : ٦ ، ٧ .

المـــادية ، ولعلاج هـــذا ، ينبغى الرجوع الى المبادىء التى أمرنا الله سبحانه وتعالى بها ، وسوف أوجزها لك :

أولا : اخلاص التوحيد لله ، لأن التوحيد فى الاســـلام يستهدف المســـاواة بين الناس فى الاعتبار الانسانى ، وفى البقاء فى المستوى الانسانى ، وفى المشـــاركة فى خصائص الانسانية من الصواب والخطأ ، فلا مجال للادعاء بأن شخصا ما ، أو أسرة مفضلة على غيرها من بقية أفراد المجتمع ، فالكل سواء فى الحقوق والواجبات ، ولا يجوز لأحـــد أن يحصل على فضل مال أو جاه ، اعتمادا على جنس أو دم ، فلا يأخذ الا جزاء ما يقـــوم به من عمل للمجموع ، لأن التفاضل فى الاســـلام لا يكون الا على أســـاس العمل • قال تعـــالى : « **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** »[١٧] ••

ويدخل فى مجال التقوى : العبادة ، والسعى على الرزق ، ومعاملة الناس بالحسنى •

ثانيا : يجب ألا يصل الاستمتاع بالحياة الى حد الاسراف ، لأن الاسراف يترتب عليـــه :

اما منع الآخرين من حقهم فى الحياة ، واما الاساءة الى الذات نفســـها بكثرة ما تستمتع به ، يقول الله تعالى : « **يابنى آدم خـــذوا زينتكم عنـــد كل مســـجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انـــه لا يحب المسرفين** »[١٨] ••

فينهى عن المبالغة فى الاستمتاع بالأكل والشرب ، أى بمتع الحياة الدنيا ، ولكنه لا ينهى عن تحصيلها ، والاعتدال فيها •

ثالثا : مساعدة الضعفاء فى المجتمع ، سواء أكان ذلك ماديا أو معنويا ، قال تعالى فى وصف المؤمنين : « **والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم** »[١٩] ••

---

(١٧) الحجرات : ١٣ .
(١٨) الأعراف : ٣١ .
(١٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

وقال : « **وآتى المـال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب** »(٢٠) ..

رابعا : يجب أن يكون الأمر شورى بين المسلمين ، امتثالا لقوله تعالى : « **وأمرهم شورى بينهم** »(٢١) ..

فلا ينفرد أحد باتخاذ القرار ، فالأسرة تتشاور فيما بينها فى الشئون الخاصة ، والأمة تستطلع رأى المسلمين فى أمور الحكم والسياسة ، فلا ينفرد أحد برأيه ، ولا يفرض حاكم سلطانه على الناس بقوة الحديد والنار ، بل يرتضيه الناس حاكما عن اقتناع ، بأنه أصلح الموجودين لهذا العمل ، فاذا طبق المسلمون هذه المبادىء اختفت كل الأمراض التى تحدثت عنها .

● كيف ذلك ؟

— لأن الاعتراف بالمساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات يحفظ لكل ذى حق حقه ، فلا ينال أحد شيئا زائد على ما ضمنه له عمله ، أو اجتهاده ، وبذا تختفى ظاهرة التكالب وسلب الانسان ما ليس له ، واذا اعتدلوا فى الاستمتاع بالماديات ، توارى الجشع الذى هو فى أساسه نتيجة لميول الانسان الى الحصول على قدر أكبر من ملذات الحياة ، واذا وجد الضعيف من يساعده ، والفقير من يمد له يد العون ، شاعت المحبة بين الجميع ، واذا تقرر مبدأ الشورى فى المجتمع ، اختفى التسلط والتجبر ، وعاش الناس متفاهمين ، رحماء بينهم ، وأصبحوا ضمن عباد الرحمن ، الذين وصفهم الله بقوله : « **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما . انها ساءت مستقرا ومقاما . والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله**

---

(٢٠) البقرة : ١٧٧ (٢١) الشورى : ٣٨

الا بالحق ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق آثاما • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا • الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما • ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا • والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما • والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا • والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما • أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما »(٢٢) ..

* * *

(٢٢) الفرقان : ٦٣ — ٧٥

٧ — المسئولية فى الاسلام

(أ) لابد للحياة الانسانية من معالم يرتكز عليها ، حتى يستقيم أمرها ، ويشتد عودها ، اذ من المستحيل أن تسير هذه الحياة فى خط سوى ، لا يهتز ولا يتزعزع ، دون أن يلتزم الانسان بالمبادىء التى تمسكها فلا تنهار ، وتحوطها بسياج الدوام والاستمرار • ومن أهم هذه المبادىء : مبدأ المسئولية ، وهى ذات شعب ثلاث هى : المسئولية الشخصية ، والمسئولية الأسرية ، والمسئولية الاجتماعية ، وآخرها مسئولية الفرد تجاه وطنه ونظامه السياسى الذى ارتضاه المجتمع أسلوبا للحكم والادارة •

وقد اختلفت الأديان فى تحديد معالم المسئولية الشخصية ، ومن أوضح الاتجاهات التى خالفت فيها الاسلام : ميل بعضها الى أن تتحمل الأجيال وزر أسلافها السابقين ، فتتحمل الكثير من المآسى والآلام دون ذنب ارتكبته أو خطيئة وقعت فيها ، ولم يقتصر هذا المبدأ على الأديان ، بل أقرته أيضا نظم الحكم السياسية ، وخاصة عقب الحروب والفتن ، اذ يقتص المنتصر من أناس لا جريرة لهم فيما حدث ، فيعذب الشعب المهزوم ، دون أن يكون لديه من الأدلة ما يبرر هذا الاجراء ، الذى لا يتسم بروح العدالة فى توقيع العقوبة •

أما الاسلام ، فقد بين أنه لا ينبغى أن يؤخذ جيل بجريمة ارتكبها جيل آخر ، فلا توقع العقوبة الا على من اقترف الاثم وباشر الخطيئة ، يقول الله تعالى : « **تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعملون** »[١] ••

ويقول : « **قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون** »[٢] ••

كما ذهبت بعض الأديان الى مبدأ القصاص ممن لم يرتكب الاثم ، فمن مبادىء بعضها أن يتحمل مؤسسوها العذاب فى سبيل الآخرين الذين ارتكبوا الآثام واعتدوا على حق الآخرين ، وهذه صورة يرفضها

---

(١) البقرة : ١٣٤ ، ١٤١ (٢) سبأ : ٢٥

العقل البشرى ، ولا يقبل أى مجتمع تطبيقها ، والا ضاعت الحقوق واختفت روح العدالة ، فيقتص ممن لا ذنب له ، ويترك من يقترف الاثم فى المجتمع بدون عقاب ، وتلك وسيلة تساعد على وقوع مظالم لا حدود لها .

ولما كان الاسلام دينا واقعيا ، ينظم واقع المجتمعات ، طبقا لظروفها وملابسات حياة أفرادها ، لم يطلب من المسلمين أن يؤمنوا بنظريات تأباها العقول السليمة ، ولم يفرض عليهم تنفيذ قواعد تصطدم مع واقع الحياة ، أو تتنافى مع المتطلبات الأساسية لقيام نظام متكامل ترفرف عليه راية العدالة ، بحيث يأخذ فيه كل ذى حق حقه ، وينال كل من ارتكب اثما عقابا يتناسب مع ما صدر منه من سوء فى حق الآخرين . فقرر أن كل انسان يتحمل وزر ما فعل ، فينال من الثواب والعقاب طبقا لما صدر منه سواء أكان ذلك ايجابا أو سلبا ، فالمسلم مسئول مسئولية شخصية عن كل أعماله ، اذ لا يؤخذ أحد بذنب آخر ، فلا يتحمل أب وزر ابنه البالغ ، ولا يقتص من ابن بجريرة أبيه ، ولا يحاسب زوج على خطأ ارتكبته زوجته ، ولا تسئل زوجة عما فعل زوجها .

فالاسلام يحمل كل شخص مسئولية ما فعله هو ، فلا يحمل أحد وزر آخر بسبب قرابة فى الدم ، أو فى النسب ، أو فى طريق صلة مذهبية ، أو رباط عقدى ، أو عقد اجتماعى ، فقد وردت آيات كثيرة فى القرآن الكريم ، تحمل هذا المعنى منها قوله تعالى : « **ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة الى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** »(٣) .

وقوله : « **ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها** »(٤) ..

ومما لا شك فيه أن هذه قاعدة أساسية فى بناء نظام الحياة الاجتماعية ، فلو تخلفت فى أى مجتمع ، لانهار انهيارا كاملا ، اذ كيف يستقيم أمره بعد أن فقد الركيزة الأساسية فيه ، ألا وهى المسئولية الشخصية .

---

(٣) فاطر : ١٨ (٤) الاسراء : ٧

لم يقصد الاسلام بتقرير مبدأ المسئولية الشخصية ، أن يقطع المجتمع الى وحدات فردية منفصلا بعضها عن بعضها ، بحيث يكون كل فرد مسئولا عما يفعل دون أن يربطه رباط وثيق بما حوله ، رباط يدفعه الى تحمل بعض الالتزامات تجاه الآخرين ، وانما أراد بتحديد المسئولية الشخصية تحديدا يجعلها جزءاً من دائرة متكاملة يرتبط بعضها ببعض ، فى الوقت الذى يكون فيه كل انسان مسئولا عما يفعل ، بحيث لا يشاركه فى هذه المسئولية قريب ، أو رفيق ، أوجب عليه الاسلام أن يتحمل أيضا بعض الالتزامات تجاه الآخرين ومن بين هذه الالتزامات ما يجب عليه ازاء ذوى القربى ، وفى مقدمتهم والداه ، لأن لهما فضل وجوده وتربيته ، ولهذا حث القرآن الكريم على معاملتهما معاملة حسنة ، فقال : **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما • واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »**(٥) ••

فيجب على المسلم أن يعامل أبويه معاملة طيبة ، وذلك بأن يقدم لهما ما يحتاجان اليه ، من : مال ، وعطف ، وحنان ، ولا يظهر لهما ما يجرح شعورهما ، أو يؤذيهما مهما بلغ ذلك من ضآلة ، حتى الحركة الصغيرة ، أو الصوت الذى لا يتبين معالم حروفه يحرم على المرء الاتيان به فى مواجهة الوالدين ، ما دام فى ذلك ايذاء لشعورهما ، و جرحا لكرامتهما ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التصرف بقوله : **« فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما »**(٦) ••

وان اختلفت معهما فى الرأى ، فلا ينبغى أن يكون ذلك مبررا لمواجهتهما بما يكرهانه ، امتثالا لأمر الله بأن يكون لينا معهما ، حتى وان دعياه الى الشرك بالله ، اذ بينما يدعو الاسلام الى مقاطعة المشركين وعدم الولاء لهم فى قوله تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة »**(٧) ••

---

(٥) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤
(٦) الاسراء : ٢٣
(٧) الممتحنة : ١

يأمر المسلم بأن يصاحب أبويه مصاحبة طيبة ، حتى وان بذلا كل ما فى وسعهما لحمله على الشرك بالله ، يقول الله تعالى: «**ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا**»(٨) ..

وليست الوصية بمعاملة ذوى القربى مقصورة على الابوين فقط ، بل تتعداهما الى كل من يمت الى المسلم بصلة قرابة أو نسب ، فقد قرن الله بينه وبين الأرحام ، فى قوله تعالى : « **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام** »(٩) ..

كما قرن بين الفساد فى الأرض وقطيعة الرحم فقال تعالى : « **فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** »(١٠) ..

فالجمع بين الافساد فى الأرض ، وقطع صلة الرحم ، وبيان أن الله لعن من يقترف كليهما ، يبين أهمية صلة الرحم فى بناء الحياة الاجتماعية ، لأن المجتمع الذى لا يعرف الناس فيه للأقارب حقا عليهم ، هو مجتمع مفكك الأوصال ، متداعى البنيان ، لأن من لا خير فيه لأهله ، فلا خير فيه لغيرهم من أبناء وطنه ، وأقرب أفراد الأهل هم الزوجة والأولاد ، فلا خير فى أحد لمجتمعه ، ان عامل زوجته وأولاده معاملة سيئة ، وصدق رسول رسول الله ﷺ حيث يقول : « خيركم خيركم لأهله .. وأنا خيركم لأهلى » ..

* * *

(ب) كلما شعر أفراد المجتمع بعمق الصلة بينهم ، وبضرورة المحافظة على بعضهم البعض وبحتمية دفاع القوى منهم عن الضعيف ، وبذل الحنان والعطف لمن حرم منه ، ومساعدة من يحتاج الى المساعدة ، اشتد ساعد المجتمع ، وقوى تماسكه ، وصار كالصخرة الصماء فى مواجهة الريح العاصفة ، والزلزال المدمر ، ونكبات الدهر المميتة ، فلا تقوى

---

(٨) لقمان : ١٤ ، ١٥ (٩) النساء : ١
(١٠) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

هذه الكوارث على زعزعة أركانه ، أو المروق بين طياته وفجواته ، لأن التحام أفراد المجتمع مع بعضهم قد سد هذه الفجوات ، وطمس مداخل تلك القنوات ، فهم كالسد المنيع أمام ما يقابلهم من غضب الطبيعة ، وتقلبات الدهور والأزمان •

لكن رغبات الناس المتنافرة ، وطموحاتهم المتعددة ، وغرائزهم التى لا يعرف لها حدود ، فهى تطلب المزيد دائما ، وتدفع صاحبها الى التنكر لصاحبه ، والكيد لصديقه ، وعدم الاعتراف بحقوق جاره ورفيقه ، بل تحمله على ايذاء أقرب الناس اليه فى سبيل اشباعها ، وتزين له شرعية ما يقترفه من آثام فى حق أبناء مجتمعه ، بغية الوصول الى الهدف الذى يرضيها ، ويشبع نهمها الذى لا يرتوى أبدا • كل ذلك يقف عقبة أمام تحقيق التماسك ، والتعاطف ، والتراحم ، الذى يقى المجتمع من التفكك والانهيار ، ويحفظ بنيانه من التخلخل والانكسار •

وقد حاول مشرعو القوانين الوضعية بشتى الطرق ومختلف المناهج والأساليب علاج هذه الظواهر الاجتماعية ، فشرعوا العديد من العقوبات والجزاءات ، وسنوا كثيرا من اللوائح والقوانين للحد من غلواء الرغبات الفردية ، والشهوات الشخصية ، كما وضعوا مناهج تربوية تساعد على تكوين الفرد على أسس تجعله يشعر بحق أخيه فى المجتمع ، ويدرك أنه فرد فى هيكل اجتماعى ، يستمد قوته من قوة هذا الهيكل ، ولذا يجب المحافظة عليه وتدعيمه ، ولا يكون ذلك الا بمراعاة حقوق الآخرين ومساعدة بعضهم البعض •

غير أن هذه القوانين الوضعية ، والأساليب التربوية قد أصابها الفشل فى كثير من نواحى الحياة ، وخاصة بين الطبقات الاجتماعية التى لم تتمتع بقدر من الثقافة يساعدها على ادراك هذا الجانب الانسانى ، لأنها أغفلت جانبا هاما فى الانسان ، ألا وهو مخاطبة الجانب الروحى فيه ، ومما لا شك فيه أن هذا الجانب يخضع خضوعا كليا للتعاليم الدينية ، فلو غلفت هذا الاسلوب القانونى بالروح الدينية ،

لكان أكثر تأثيرا فى نفوس الأفراد ، وأبلغ فى اقناعهم بحتمية الالتزام بما يعود على المجتمع ككل بالخير والفائدة ، فتختفى الانانية ، وتسود روح التعاون بين أفراد المجتمع •

وقد بين الاسلام أهمية هذا الجانب فى بناء المجتمع على أسس سليمة ، فقرن الأمر بمعاملة الناس لاخوانهم بالاحسان ، بعبادة الله • فقال تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم** »(١١) ••

فأمر الانسان بعد عبادة الله ، وعدم الاشراك به ، بأن يحسن الى الوالدين والى ذوى قرباه ، وهذه هى المسئولية الأسرية ، ثم يأتى بعد هذا ضرورة الاحسان الى أفراد المجتمع الذى يعيش فيه ، فبدأ بمن هم أكثر حاجة الى المساعدة ، وهم اليتامى ، لأنهم فقدوا من يعولهم فأصبحوا عاجزين عن مواجهة الحياة ، بما فيها من قسوة تفوق قدرتهم الجسمية ، وشدائد تئن من وطأتها عضلاتهم اللينة ، وتصاب بالشلل أمامها ملكاتهم الذهنية التى لم يكتمل نضجها بعد •

ويليهم فى الاحتياج الى المساعدة : المساكين •• وهم أولئك الذين لا تمكنهم ظروف حياتهم من الحصول على ما يحتاجون اليه فى معيشتهم ، فهم فى أزمة ويحتاجون الى من يمد يد المساعدة اليهم ، ولذلك حث الله المؤمنين على مساعدتهم ، حتى يتغلبوا على قسوة الدهر ، ونكبات الزمن •

ليس أمر المسلم بمساعدة اليتامى والمساكين ، مشروط بأن يكونوا من سكان قريته ، أو حيه ، أو مجاورين له فى المسكن — وان كان هؤلاء مقدمون على غيرهم عند الاقتضاء — بل هو عام وشامل لكل يتيم ومسكين، وحتى وان تباعدت ديارهم ، ونأت أوطانهم ، ذلك أن حق الجار ، قد أفرد بنص مخصوص به بعد ذلك فى الآية • فى قوله تعالى « **والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب** » ••

---

(١١) النساء : ٣٦ .

ويلاحظ أن الآية ذكرت ثلاثة أصناف من الجيران ، فالأول والثانى منصبان على من يسكنون بأى شكل من الأشكال بجوار من وجبت عليه المساعدة ، فمساندة الجار والوقوف بجانبه فى الشدائد مسئولية كل مسلم • فمن فرط فيها فقد استحق عقاب الله وعذابه ، ذلك أن للجار حق مقدس على جاره ، فهو مطالب بأن يحفظ عورته ، فيستر عليه ، ويدفع عنه أى أذى يلحق به ، ويقدم له العون ان احتاج الى عون ، فقد روى أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون ، ملعون ، من بات شبعان ، وجاره جائع » ••

وجاءت أهمية فرض مساعدة الجار لجاره ، من ناحية أنه أقرب الناس اليه فى المكان ، فان لم يسعفه فى وقت الشدة اشتد الخطب وعظمت المصيبة ، لأن البعيد لا يسمع أنينه ، ولا يطلع على خطبه ، فلو أعفى الجار من هذا الو جب الاجتماعى لفتكت المصيبة بمن نزلت به وقضت عليه قبل أن يخف لليه أحد ، وتلك جريمة انسانية ، لن يتركها الله دون عقاب ، ولذلك أخبر على لسان نبيه وصيته بالجار ، وغضبه على من لم يقدم المساعدة لجاره ، لأنه أهمل فى واجب مقدس عليه ، وكرر الله الوصية به على شكل أبرز أهمية مساندة الجار لجاره ومساعدته، فقد قال رسول الله ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار ، حتى ظننت أنه سيورثه » •

أما الصنف الثالث من الجيران : فهو ما عبرت عنه الآية بـــ « **الصاحب بالجنب** » والمقصود به : كل من جاورك فى جميع مجالات الحياة ، فيندرج تحته الزميل فى العمل والرفيق فى السفر ، والعميل فى التجارة ، والمشارك فى استعمال الشارع والمرافق العامة ، فالاحسان الى كل هؤلاء يقتضى من المسلم أن يتخلق بأخلاق الاسلام معهم ، فلا يؤذى زميله فى العمل بتدبير المؤامرات له عند الرؤساء ، والوشاية به عند من بيده أمره ، ولا يحمله ما لا يطيق من الأعمال •

كذلك يوصى الاســـلام المسلم بأن يتحلى بالأخلاق الكريمة مع

من يرافقه فى السفر بكل ما يمكنه من امكانات ، أما المشارك فى استعمال الشارع والمرافق العامة فواجبه الاجتماعى ازاء شركائه أن يلتزم بالحدود التى رسمتها القوانين وحددتها اللوائح ، فلا يجاوزها ولا يتعداها ، لأن فى ذلك ايذاء للآخرين • بل ان الاسلام يأمره بأن يرفع كل ما من شأنه أن يؤذى الناس فى الطرق العامة ، فحرم عليه القاء القاذورات ، أو الاهمال الذى يؤدى الى اعاقة المارة ، وفى هذا المعنى يقول رسول الله ﷺ : « الايمان بضع وسبعون شعبة ، أولها : لا اله الا الله ، وآخرها اماطة الأذى عن الطريق » ••

وممن وصى الاسلام به فى الآية : ابن السبيل ، والخادم •• أما ابن السبيل فهو المسافر ، فلو احتاج فى منطقة ما الى شىء فعلى المسلمين تقديم المساعدة له ، أما الخادم فهو من يقوم بالخدمة • ولما كان وضعه الاجتماعى لا يتيح له من القوة ما يساعده على الحصول على حقوقه ، وصى الاسلام به بأسلوب يرفع مكانته الاجتماعية ، ويبعد عنه الشعور بأنه أقل قدرا من سيده ، فقال رسول الله ﷺ عن الخدم : « هم اخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » •

فالمسئولية الاجتماعية فى الاسلام تحتم على المسلم أن يساعد اليتامى والمساكين ، وأن يقدم العون للجار ، وأن يعين ابن السبيل ، ويكون رحيما بمن يخدمه ، ومما لا شك فيه أن المجتمع الذى تسود فيه هذه الروح ، يكون مجتمعا قويا ، متماسك البنيان ، يشعر القوى فيه بألم الضعيف ، فيسارع الى نجدته لأنه يحس بألمه ، وقد صور رسول الله ﷺ هذا المعنى بقوله : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » •

* * *

٨ ـ الترف

المـال أحد العنصرين ، اللذين تحدث عنهما القرآن الكريم بأنهما زينة الحيـاة الدنيا ، حيث يقول الله تعالى : « **المـال والبنون زينـة الحيـاة الدنيا** »(١) ..

ولذا أباح الله للانسـن ، أن يبحث عن المـال ، ويقتنيه ، بشرط أن يكون طريق الحصول عليـه مشروعا ، لا استغلال فيها ولا احتكار ، ولا اغتصاب لحق أحد ، ولا استيلاء على ما للغير ، فاذا التزم الانسان بما أمره الله به فى طريق الحصول على المـال ، فقد أدى أحد الواجبين المطلوبين ازاء المـال .

● وهل هناك واجب آخر ؟

ـ نعم .. وهو عدم الاسراف والتبذير ، لأن الانفاق أكثر من اللازم ترف ، والترف من أكبر العوامل التى تؤثر على الفرد والمجتمع ، فتحول حياتهم فى الدنيا الى جحيم . ان عاجلا .. أو آجلا ، وفى الآخرة الى عذاب النار وبئس المصير .

ذلك أن صاحب المـال ، لا يملك التصرف المطلق فى ماله ، بل تحكمه ضوابط ، ألا وهى : أن للأمة حقا فيه ، فهى صاحبة المـال وراء كل مالك ، ولهذا أعطى الاسـلام لها الحق فى الحجر على السـفيه الذى يتلف ماله ، لأنها صاحب الرقابة على الصرف للأموال . وتوجيهها الوجهة التى يكون فيها الخير للفرد وللجماعة . يقول الله تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا** »(٢) ..

فهو يخاطب الأمة بقوله : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** » .. مع أنها فى الظاهر ليست أموالهم ، بل هى أموال من يملكها ، ولكنه أضافها الى الأمة ، لأن لها الحق فى الرقابة عليـه .

---

(١) الكهف : ٤٦ .

(٢) النساء : ٥ .

obeikandi.com

ان الاسلام يحافظ على الفرد ، كما يحافظ على الأمة ، فما يباشره الفرد ، ينبغى أن لا يلحق الضرر بالأمة ، فان لحقها ضرر مما يفعل يمنع منه ، ولو كان ظاهر الأمر أنه يتصرف فيما يملك ، ولما كان الاسراف والتبذير يضر بالفرد ، كما يضر بالأمة ، حذر الله سبحانه وتعالى منه فى أكثر من آية ، فقال تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين** »(٣) ..

وقال سبحانه : « **ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا** »(٤) ..

كما حذر أيضا من اضاعة المال ، ولو لم يكن فى ذلك ضرر على الشخص نفسه ، بل حتى ولو كان الانفاق فى سبيل الخير العام ، لأن اضاعة المال ان كان فى اللهو والفسوق فقد دمر الانسان نفسه ، وأسهم فى تدمير مجتمعه ، وان كان فى الصدقة فسوف يترك عياله فقراء يتكففون الناس . ولذلك يقول الامام الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : « **ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو** »(٥) :

ان الله تعالى أدب الانسان فى الانفاق ، فقال لنبيه ﷺ : « **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين** »(٦) ..

وقال : « **ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط** »(٧) ..

وقال فى وصف عباد الرحمن : « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** »(٨) ..

وقال ﷺ : « اذا كان عند أحدكم شىء فليبدأ بنفسه ، ثم بمن يعول . وهكذا .. وهكذا » ..

وقال ﷺ : « خير الصدقة ما أبقت غنى » ..

---

(٣) الأعراف : ٣١ .
(٤) الاسراء : ٢٧ .
(٥) البقرة : ٢١٩ .
(٦) الاسراء : ٢٦ ، ٢٧ .
(٧) الاسراء : ٢٩ .
(٨) الفرقان : ٦٧ .

وعن جابر بن عبـــد الله قال : بينما نحن عند رسـول الله ﷺ اذ جاءه رجل بمثل البيضة من ذهب فقال : يا رسول الله خذها صدقة ، فوالله لا أملك غيرها ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، ثم أتاه من بين يديه ، فأخذها منه ثم قذفه بهـا ، بحيث لو أصابته لأوجعته ، ثم قال هاتفا مغضبا : « يأتيني أحدهم بماله لا يملك غيره ، ثم يجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى ، خذها لا حاجة لنا بها » ..

فالانفاق الكثير : هو التبذير ، والقليل جدا : هو التقتير ، والعدل هو الفضيلة ، وهو المراد من قوله تعالى : **« قل العفو »** ..

ومراد شريعة الاسلام هو رعاية هـذه الحقيقة ، لأن تبديد المـال عاقبته وخيمة فى الدنيا ، فهو ذل واستعباد ، وتشريد للأهل والأولاد ، وفى الآخرة عذاب وجحيم ؛ وحسبنا ما ورد فى القرآن الكريم ، من أن الله لا يحب المسرفين ، ولا يحب المترفين ، ومن لا يحبه الله ، لا ينال أجرا فى الآخرة ، ويكون مع الذين غضب الله عليهم ، فأدخلهم نارا وقودها الناس والحجارة ، فمن عرف هـذا ، ثم أسرف فى ماله وأتلف ، يكون انسانا تنكب الطريق السوى فى الدنيا والآخرة .

اللهم اهدنا طريقك المستقيم .

* * *

٩ ــ ما يجب على المرء اتباعه فى ملبسه

ــ فيم تحب أن نتحدث اليوم ؟

● فى الواقع ان ذهنى مشغول ، منذ أيام بموضوع أعتقد أنه يطوف من وقت لآخر بخاطر كثير من المسلمين ، اذ يلاحظ المرء أن العالم الاسلامى ، ليس له زى يتميز به ، فأنت ترى أن كل قطر يختلف عن غيره فى هيئة الملابس وألوانها ، فما هو الزى الاسلامى الحقيقى ؟ .

ــ ليس للاسلام زى خاص ، ولا نوع معين يجب على المسلم أن يرتديه ، فقد أباح الاسلام للمسلم كل أنواع الملابس ، بل طلب اليه أن يرتدى كل ما يجعله حسن الهيئة ، جميل المظهر ، مرتب الهندام ، وذلك ليتمتع بما خلق الله من زينة وثياب ورياش ، تمتعا لا يخرجه عن دائرة ما أحل الله ، أى بحيث لا يكشف عورته ولا يجسمها ، يقول الله تعالى : « **يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوآتكم وريشا** »(١) ..

كما حثهم على التزين والتجمل . فقد روى أن رسول الله ﷺ ذم الكبر والتكبر يوما ، فقال له أحد أصحابه : يا رسول الله .. انى أحب أن أكون نظيفا : وثوبى نظيفا ، أفى ذلك كبر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « ان الله جميل يحب الجمال » ..

فمن فرط فى أحد هذين الأمرين ، وهما ستر العورة والزينة ، فقد انحرف عما رسمه الله له .

فان كشف عورته يكون آثما ، لأن كشف العورة مناف للآداب العامة ، والاسلام يحرم هذا العمل ، الذى يستحى منه الانسان المتمدين بفطرته ، فضلا عن أنه قد يؤدى الى الفاحشة . يقول الله تعالى : « **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما** »(٢) ..

---

(١) الأعراف : ٢٦ . (٢) الأعراف : ٢٧ .

وعن ابن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت يا رسول الله .. عورتنا ما نأتى منها وما نذر ؟ فقال : « احفظ عورتك ، الا من زوجتك ، أو ما ملكت يمينك » قلت يا رسول الله .. فاذا كان القوم بعضهم فى بعض ؟ (أى فى السفر ونحوه) قال : « فان استطعت الا يراها أحد فلا يرينها » قلت : فاذا كان أحدنا خاليا (أى منفردا) قال : « فالله تبارك وتعالى أحق ان يستحى منه » .

وان ستر عورته ، وأهمل فى مظهره ، فقد خالف وصية من الوصايا التى حث الاسلام عليها وهى التزين ، قال تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** »[٣] ..

فعدم التزين ، يؤدى الى اخفاء جانب الجمال فى المجتمع ، كما يؤدى كذلك الى انتشار الأمراض ، لأن من يهمل فى ملبسه وهيئته ، يتهاون أيضا فى نظافته وطهارته ، فاذا بلغ هذه المرحلة ، أصبح عنوانا سيئا للاسلام ، لأن الاسلام دين النظافة والطهارة ، اقرأ قول الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم الى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم الى الكعبين ، وان كنتم جنبا فاطهروا ، وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم** »[٤] ..

وكما يشمل التطهر اجانب النفسى بالصلاة يشمل أيضا البدن بالوضوء ، أى بالنظافة والمحافظة عليها .

● هل يجوز للمسلم والمسلمة أن يرتدى أى شىء ما لم يكشف عن عورته أو يجسمها ؟

— نعم .. لكن أرى من الأفضل من جانب اثبات الشخصية الاسلامية وابرازها .. أن يتعارف المسلمون — ان أمكن ذلك — على زى خاص

---

(٣) الأعراف : ٣١ .
(٤) المائدة : ٦ .

بهم ، يعرفون به ، ويبرز معالم الوطنية • وما عدا هـذا ، فكل مسلم حر فى أن يرتدى ما يحب ، مادام يحافظ على ستر العورة كما شرحت لك ذلك •

● اذن ليس من الصواب ما نسمعه من بعض الناس من أن الزى المعروف بالزى الأوروبى حرام على المسلم لبسه ، أو أن بعض أنواع الأقمشة أو الأردية غير مسموح بها اسلاميا ؟ •

— نعم •• لم يرد فى الاسلام تحريم أى نوع من أنواع الملابس ، ولكن أحب أن ألفت نظرك ، الى أن هناك أعراف تتحكم فى تقبل نوع من الملابس أو عدم تقبله ، وعليك ألا تخرج عما يتعارف عليه الناس ، فلا ترتدى شـيئا يراه الناس خارجا عن حدود اللياقة ، والا كنت شاذا وارتكبت اثما أيضا من الوجهة الدينية ، لأن الاسلام وصانا بعدم الخروج على ما تعارف عليـه المجتمع ، حتى لا نبدو شواذا بين الناس •

* * *

١٠ — احترام المواعيد

بعد أن انتهينا من الأحاديث السابقة[1] من بيان موقف الاسلام من النظام ، والنظافة ، وهما من المظاهر الأساسية للحضارة ، وبينا كيف فرض الاسلام من العبادات ما يغرس هاتين الصفتين فى نفوس المسلمين ، بحيث لو فهمها المسلم وأداها كما يجب أن تكون لأصبحت النظافة والنظام من عاداته ، التى لا يستطيع اهمالها ، بل لصارت من الغرائز التى يؤديها تلقائيا دون مشقة أو ميل الى التخلى عنها .

واليوم نريد أن نتحدث عن المظهر الثالث من مظاهر الحضارة ، ألا وهو احترام المواعيد ، وبتعبير آخر : الدقة فى تأدية الأعمال فى موعدها ، والالتزام بما يعلن من جداول زمنية ، فى جميع مجالات النشاط الاجتماعى .

● كيف يكون ذلك من مظاهر الحضارة ؟ .

— ليس هذا من مظاهر الحضارة فقط ، بل من أهم الركائز الأساسية — ان لم يكن أهمها — التى يقوم عليها بناء الحضارة الانسانية ، ذلك أن الانتهاء من تجهيز السلع فى مواعيدها يسهل أمورا كثيرة فى مسيرة التقدم الحضارى ، وتأخيرها يشيع الارتباك فى سير عجلة التقدم ، اذ أن ما يترتب على هذا التأخير يصاب بالعجز والشلل ، فتعجز الأمة عن التقدم فى طريق بناء حضارتها ، وقل مثل ذلك فى تأخير القطارات ، والمركبات العامة ، ومصالح الناس ، ودواوين الحكومة ، وبين مكاتب الشركات ، ولادراك مدى أهمية هذا الجانب فى حياة الأمم والشعوب يكفيك أن تتصور مثالا بسيطا يتصل بك اتصالا مباشرا ، تخيل أنك وضعت برنامجا لانجاز بعض المهام الخاصة ، ورتبته وحددت لكل عمل زمنا معينا ، يترتب اللاحق فيه على انجاز السابق ، وبدأت فى انجاز هذه المهمة جزءا جزءا ، فلو تعثر احداها بسبب تراخى أو اهمال بعض الذين يعاونونك فى أداء هذه المهمات لارتبك

---

(١) وضعت هذه الأحاديث فى باب (فى العبادات (تحت عنوان : أثر العبادات فى الفرد .

كل ما يلى هـذا الذى تأخر انجازه ، وربما ينتج عن هـذا الارتباك انهيار البناء كله ، ويحتاج هـذا الى وقت مضاعف لاعادته مرة ثانيـة ، مما يؤخر الانتاج ، وبالتالى يعيق التقدم الحضارى .

وقس على هـذا كل تأخير فى جميـع المجـالات ، فالتأخير فى القطارات ، والاهمال فى المواصلات داخل المدينة ، وبينها وبين المدن الأخرى ، والبطء فى انجاز أعمال الناس فى دواوين الحكومة كل هذا يصيب المجتمع بالشلل ، فيعجز عن الحركة ، ويتأخر عن ملاحقة الأمم المتقدمة ، وهـذا هو الداء العضال الذى أصيبت به معظم المجتمعات الاسلامية ، ان لم يكن كلها .

وينسبه أعداء الاسلام الى الاسلام ، وهو منه براء .. بل انـه وضع من التشريعات ما يعود المسلم على احترام المواعيـد ، وانجاز الأعمال فى أوقاتها المحـددة وأزمانها المرسومة لها ، فانظر مثلا الى الصلاة ، لم يترك الله الفرد يؤديها متى شـاء وكيف شـاء ، بل وضع لها زمنا محـددا ، لو لم تؤد فيه لخرجت عن وقتها وفى ذلك ذنب ، بل ان بعض الفقهاء أفتى : بأن الله لن يقبل الصلاة التى تؤدى خارج وقتها بسبب الاهمال .

أليس فى ذلك حمل للمسلم ؛ على أن يتعود أداء الأعمال فى وقتها المحدد ، دون ابطاء أو تأخير ، فقد روى أن أفضل الصلاة ما أدى فى أول الوقت ، وهـذه اشـارة الى عـدم التأجيل فى الأعمـال ، فلو أن المسلمين أدركوا مغزى هـذا التشريع لكانوا أشـد الأمم دقة فى انجاز الأعمال فى أوقاتها المحددة ، فتوبوا الى الله أيها المسلمون ، ولا تهملوا فى انجاز الأعمال فى مواعيدها ، حتى تظهروا بمظهر المسلمين المخلصين لدينهم ، فتصبحوا نماذج متحركة تدعو غير المسلمين بطريق غير مباشر الى الدخول فى الاسلام ، لأن سلوككم الطيب فى هـذا المجال سوف يحمل غير المسلمين الى التفكير فى اعتناق هـذا الدين ، الذى يربى أتباعه هـذه التربية التى تعود على المجتمع بالخير السعادة .

وفقكم الله .

* * *